

خواطر يثيرها سائل

للأستاذ عبد المنعم خلاف

— ٣ —

سنة الله — التحرر من التاريخ — الطفولة موضع أمل — مصر
العمل — سرود النساك — عالم الأجسام — قلتمش هنا — معي
المباداة — الدين ابتهاج لا كآبة — دموع الأقباء لمدين — الحياة
لب ولهو — جناية الدولة على حياة الروح

لا يزال أكثر الناس يجهل سنة الله وأنجاه إرادته في
الطبيعة على الرغم من كثرة عدد العلماء الطبيعيين ، ولا يزال
كثير من الأمم يأبى أن يبني الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية
كما بنى الله للطبيعة بقوانين لا تخفى ولا تستثنى ولا تسهل ،
مع أن الحل الوحيد الموفق السميد لجميع المشكلات هو أن يبني
للفرد حياته وتبني الجماعة حياتها كما بنى الله الحياة العامة على الحرص
الدقيق والليقظة التامة والعلم الشامل والقوة القاهرة والتصميم
النافذ والاستيعاب الكامل للجزئيات والتوزيع العادل للقوى
والمناصر ؛ فبرزت في هذا للتناسق والانسجام والجمال

ومع هذا الجهل الفاضح من الناس « لسنة الله » نجد
في غاية الجرأة إذ يقدمون على محاكمة الله بقولهم للصغيرة المحدودة
التي لم تعرفه بعد ولم تعرف أنجاه إرادته للظاهر في الطبيعة

إن الله احتجب عنا قلن ندركه بأبصارنا إذ لا قدرة ولا طاقة لنا
على ذلك . ولكنه وضع أمامنا « خريطة » لتكون مفصلة واضحة
لنرى فيها تخطيطه وأسلوبه في إيجاد الحياة وتنظيمها والقيام عليها
وقد وضع الله في الإنسان قوة أشبه بمראה تنطبع فيها جميع
صور الطبيعة ونظمها وهي « للعقل » ، وكان من الحتم لو سارت
للتربية سيرها الطبيعي أن ينتقل سنة الله في الطبيعة إلى تلك
القوة وينطبع فيها فتحتفظه وتنبه إليه دائماً وتسير بإرشاده في بناء
الحياة الإنسانية . ولكن قوة « الاختيار » التي في الإنسان من
جهة وجهه « لاختيار » كل أفق « واستطلاع » كل شيء
في الحياة هما السبب في عدم تقيده بما يوحى إليه أسلوب الله ،

وفي خلقه لنفسه جواً صناعياً جملة يعتمد بالتدريج عن الطبيعة
التي هي كتاب الله إليه وصورة من علمه تعالى وأنجاه إرادته
وشيء آخر غير « الاختيار » وحسب الاستطلاع والاختبار يؤثر
في إدراك الإنسان وعقله تأثيراً رديئاً ... شيء هو كل شيء ...
هو التاريخ المسطور في الصحف المروونة وأدمغة المجازر والشيوخ
الذين هم قناطر وجسور دائمة تنبر عليها ورأيات من الجاهليات
الأولى متحدرة في الدماء والأعصاب والآلئة هي آثار من
المحاولات الأولى المفلوطة التي حاولها الإنسان لإدراك الله وإدراك
أنجاهه في الطبيعة

إن خاثر التاريخ السيئة هي التي تدورنا عن رؤية الحق الصريح
إنها جعلتنا أعمى صناعيين لا طبيعيين ... فلا يزال في التاريخ
كثير من الأمراض والظلمات التي كنا فيها قبل أن نشب عن
الطوق ونذكر الرشداً ، إنه من أكبر أساحة الضرر مقاومة تقدم
الإنسانية ... إنه يرينا بما كان يربى عليه الأولون من انعواطف
والأفكار المفلوطة ، ومن العجيب أن الاحتفاظ بخرافات التاريخ
وجدله سرعة عصرية تحمله بحجة الإبقاء على « التقاليد » حتى
الدين العقلي للطبيعي وهو الإسلام لم يستطع أن يمحو مصائب
التاريخ وموارثه السيئة من الأمم التي تدن به فدخل كثير من
الناس فيه من غير أن يفصلوا غملاً تاماً من موارث الوثنيات
والأباطيل واكتفوا بتغيير عنوان حياتهم العقلية للقلبية من غير
أن يخلوا ما وراء المناوين ، ولو ذهبت أقمى بقايا الوثنيات
في ديار الإسلام وفي أفكار المسلمين اطلال في المقال ، وحسبي أن
أحيل كل قارىء على علمه بما يجري ، وإذا كان هذا في ديار الإسلام
فما بالك بما في ديار غيره ... وقد انحدرت إلينا هذه الموارث سائرة
مع أسول الدين جنباً لجنب ولم تنتبه إلى ازدواج شخصياتنا تبعاً
لذلك ، ولإني أتخيل جيلاً من الأطفال ربي بأيدي حكام تحرروا
من كل باطل واسترشدوا بأسلوب الطبيعة وسلامة للفطرة
ولم يأخذوا الأفكار المأمة عن الحياة والدين من التاريخ والبيئة
الموتة . . . أتخيل ذلك قسطنط أمي في هذه الأرض أنوار من
الجنة الموعودة في السماء ...

ولم يستطع نبي أن يتلقى الوحي عن الله إلا بعد هذا التجرد
من للتاريخ ... إن النبوة في مبتدأها تجرد من كل شيء موروث

نمّا إقبال في الوصول إلى أصول الحياة ، ثم رؤية يد الله وهي تضع هذه الأصول وتحفظها ، ثم سماح الله بعد ذلك ...

ولطفولة هي موضع أمل الإصلاح ... ولكن هل ترك الإنسانية المصلحين يبنون مستقبلها ؟ هذا سؤال قبله سؤال آخر : هل هي تدرك المصلحين وتعرفهم ؟ نعم تدركهم ولكنها تحسدكم ؛ لأن الفرائز للسفلى وقوى الشر دائماً تسلط الحسد ليكون طليعة في الدفاع عنها وبقاء وجودها ...

قلوب الأنبياء والحكماء كقلوب الأطفال ... لأنهم يرتدون دائماً إلى مبادئ الطبيعة وأوليات الحياة البسيطة التي لم تتلو مع ميراث التفاف الاجتماعي والإثم الصناعي . فهم دائماً ينظرون بفرحة وبهجة إلى الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكل شيء ... وكل شيء . وكأنهم في ابتداء حياة جديدة كل يوم بل كل ساعة ... وتترقى نظرتهم بترقى إدراكهم حتى ينتهي بهم الأمر إلى أن ينظروا إلى الوجود نظرة خالق الوجود ! نظرة وراها وصاية على كل شيء واهتمام به وحرص على استمرار نفاذ قوانين الحق على سنة الله وطريقته

قد كان من الواجب على الإنسان أن يقلد أسلوب الله منذ وجوده . وأسلوبه يتمثل في العمل والسمت الدائم ... ولكن الإنسان أخذ يلهو ويبعث ويتكلم وفرح بالكلام وقضى في علوم الكلام ، هراً طويلاً من عمره ، حتى جاء العصر للعمل الذي لا تزال في فجره وبواكيره . وهذا العصر للعمل كثير البركات على الإنسان ، إذ كشف له عن كثير من أبواب كنوز الطبيعة ومفاتيحها . وكان من أول الواجبات بعد هذا العصر أن يشرع الإنسان في تعديل غرائزه السفلى وتهذيبها و « تطويعها » حتى لا تشغله بسفالاتها القديمة وصراخها الصبياني

وإني لأعجب من العلماء الطبيعيين الذين كشفوا عن كثير من الأسرار العملية في الطبيعة ، ثم استمروا بعد ذلك خاضعين للفرائز السفلى وموارث التاريخ الجاهلي ! كما أعجب من النساك والعباد الذين يتنسكون ويتركون الجهاد للحياة العملية والاندماج في موجاتها !

إن الله ببناء بني السماء والأرض والجبال ... وصانع

صنع أجسام النبات والحيوان ... وسقّا يسوق السحاب الثقال ... وزراع يخرج نبات كل شيء ، ومعلم هدى كل شيء إلى طبيعته ... وفنان طرز حوائش الوجود ، وصنغ الخدود ، وزركش الأرض بالورود ، ورقق أنفاس الرياح ، ونشر المعطر الفياح ، ورقق الأنهار ، وجلال النهار ، وزين الظلام بالمصابيح الرضاء ...

« فالجمال هو توقيع الله على الأشياء » !

فكيف يأبى النساك أن يسموا للحياة عمل الله ؟ !

إنهم لم يعرفوه ! فلو عرفوه لماروا على أسلوبه ، ولأقاموا أسواق الحياة عامرة ... لأنه خلقهم ليمروها لا ليركوها غامرة صامدة صمت الخراب والقبور ...

إن حياة التأمل في الله بدون عمل قليلة المحصول جالبة للخبال « ولا تفكروا في ذاته قهلكوا »

الأجسام ! الأجسام ! هي أداة الحياة في الدنيا ، فيجب أن نحيا بها حياة كاملة ، ولا نمطلها في البحث وراء العالم الخفى ... يجب أن نخرجها إخراجاً جيلاً قوياً فإنها محارِب من محارِب الطبيعة أيضاً ... بل يكاد يكون الجسم الإنساني الجميل المكتمل أجل شيء في الوجود ...

لعل النساك يحرمون أنفسهم هنا ليتألوا ما هناك ؟ ... كلا ! ليس وجود الآخرة معناه ألا نحيا هنا حياة طيبة بقدر ما تسمح به طبيعة الحياة الدنيا ... إن الآلام هي سبب للكفر والجرائم التي تحرم من جنة السماء فلنحاربها ولنحياها إذا استطعنا لنضمن الرضا عن الحياة والرضا عن الله

لماذا نشد نعم الآخرة بشقاء الدنيا ؟ ! ألا يجوز الجمع بينهما ؟ بلى ! وإلا فالحياة مأساة !

ويقيني أن صلاح الدنيا سلاح للآخرة

إن الدين لم يكلفنا بمعمل أشق من الموت في سبيل الله . وما معنى الموت في سبيل الله ؟ إنه الموت لتكون كلمات الله هي العليا . ولن تكون كلماته كذلك إلا إذا سار الإنسان على أسلوب الله في الطبيعة فضمن سلامة الحياة من إجرام الفرائز السفلى وظلمها ، فكانه أشق عمل ديني فرضه الله وسيلة لإصلاح الدنيا . فصلاح الدنيا هو المطلوب الأول لأننا نحيا حياتنا هذه قبل حياتنا الأخرى

كل أعمال حياته مسبوقة بإمجاهات ونيات منظور فيها إلى رب الحياة ... والكافر كل حياته غفلت يأخذ بعضها برقاب بعض فلا يفيق منها إلا عند الموت . مع أنه حين يدخل متحفاً أو بيتاً جليلاً يسرع فكره إلى التسؤال عمن بناه أو نظمه ...

لقد أفسدنا الماني الدينية بأخذها تقليداً من دون فكر وروح وإحساس بها وبثقلينها للأحداث قبل أوان تفتحها في أرواحهم وعقولهم بمناسباتها . فحسبنا العبادة هي أداء رسوم الصلوات والزكوات والصوم وغيرها ... كلا ! إن العبادة هي الإحساس الصادق بالحياة والشعور الملزم بالله والفكر فيه ، وفي أسلوبه وتقليد أعماله في الطبيعة من أول الوعي للحياة إلى أن تحين سكرة الموت ... وأما الصلوات وما وراءها مما يسمى عبادات ، فهي فيض للنفس بتلك المشاعر والأحاسيس والأفكار فيضاً يتمثل وينشكّل ويظهر في عالم الأجسام بعد امتلاء الروح ...

والدليل على ذلك أن هذه الأعمال تكون باطلة إذا خلت من التوجه والنية ... فكأنها مواقف « استعراض » لأجسام الذين تمثلت فيهم الحقيقة الدينية كواقف استعراض الجنود الذين يجيشون لغاية ما ، ولن يمد الجندي بلباسه وشاراته وسماته الظاهرة إلا إذا كان عاصراً للقلب بمغنى الوطنية والغاية التي جند من أجلها .

شيء واحد ينبغي للإنسان أن يحرص عليه ، حتى يحقق الغاية من خلقه : هو أن يحبي رب هذه الحياة بتحية بسيطة قبل أي عمل أو متاع ، ومع كل ألم ...

فإذا استطاعت للتربية في بيوتنا ومدارسنا أن تجعل هذه الخاطرة الصغيرة عادة ملازمة للإنسان ، فقد قام الدين وأقيم أساسه في النفس ، ثم تأتي سائر رسومه وأشكاله بعد ذلك فيضاً نفسياً وفضلاً اختيارياً

وإن إدراكنا لله في القرن العشرين يجب أن يكون أوسع منه عند جماهير الناس في القرون السالفة . وهذا منوط بالتربية ، وللنشأة الطبيعية تحت التأثير المباشر للطبيعة أقل ضرراً وإفساداً لنفس الطفل من التربية المخلوطة التي فيها موارد ومقاييس فاسدة والدين يجب أن يعلم على أنه بهجة وفرح بالحياة التي أنمحت لنا أن نمزق الله في هذه الرحلة السعيدة التي دعانا إليها على الزورق الأرضي

يقول النساك المتزلون للحياة : إنهم يطلبون وجه الله بالمرزلة ... ولكن وجه الله الحقيقي لا يرى ... وفي الحديث : « إن الله احتجب عن الأنظار ، وإن الملأ الأعلى ليطالبونه كما تطالبونه أنتم » . ذلك قول قائله أعظم نبوة رأها الأرض ، وعليه طابع جلالها وعمقها وصدق تجربتها في للبحث عن وجه الله ولكن صور وجه الله تظهر جليلة رائدة في الطبيعة وفي آفاق الحياة الإنسانية ، فعلينا أن نبحث فيها عن الله وأسراره . وما خلقنا بالأجسام إلا لنعرفه في عالم الأجسام ...

علينا أن نلبس الحياة لبساً واسعاً شاملاً وأن نحسها في كل شيء إحساساً عميقاً . وتلك هي حقيقة عبادتنا . فالدين هو الإحساس بالحياة إحساساً دائماً يكون معه الفكر في الله مبدع الحياة . وبهذا أجد تفسير « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وبهذا التفسير تتبين غاية الخالق من خلق الناس متحققة وانحة جليلة . أليس كذلك أيها الأخ البيروتي أليس كذلك أيها الأخ الآخر « ح . م » ؟

فالإحساس الصادق بالحياة والعمل بمقتضى هذا الإحساس هو عبادة الله . وعلى هذا تكون كل حياة الإنسان في الأرض عبادة ... حتى خدمته لنفسه وشعوره ببلذاته المحللة وكشفه للعلمي وعمله للرزق ما دام وراء كل أولئك فكر في الله وتنبه إلى سر إيجاده للحياة

وتبتدى " للعبادة حين يحس الإنسان أنه دخل هذه الحياة مكرهاً من غير إرادة ، فصبر على ما فيها من آلام ومشقات حتى يتوفى الله نفسه من جسده ... فالمتنحر كافر لأنه لم يتحمل آلام التجربة والاختبار في هذه الرحلة الأرضية التي لا بد أن يكون وراءها غاية عقلية عند الذي دعانا إليها وجعلنا عليها . المتنحر شخص وهبه الله الحياة فردها في وجهه . فادمت قد شمرت أنني لست أنا الذي خلق نفسي ودفع بها إلى هذا البيت المائل للمظلم فصبرت وانتظرت وفكرت في صاحبه دائماً فأنا عابده ؛ لأنني سرت طائماً مع أبناء الحياة ، ومواكب الطبيعة التي تسير أمام عصا القهر طائفة ساجدة

والفرق بين أعظم القديسين وأعظم الكافرين هو اتجاه الفكر والنية إلى رب الحياة في كل عمل وفي كل وقت ... فالقديس

ولشد ما يفيظ ويؤلم أن ترى حياة التدين عند أكثر الناس ملازمة للكآبة والضعف والحزن والفقر ... وسوء للطريقة في دعوة الأغنياء والأقوياء للتدين ، هي التي حرمتهم منه وحرمتهم منهم ، حتى صار معلوماً عند الناس أن عبادة الله لا تكون من قوة ولا غنى ، وإنما تكون من الفقر والضعف الذي لا يملك في الأرض صرفاً ولا نصراً . وعدم التفريق بين ما لا بد منه في الدين لأنه ضروري وبين ما منه بد لأنه كالي هو مما جنى على حياة التدين بعدم انتشارها بين الأغنياء والأقوياء

ثم إن مفاجأة الأغنياء والأقوياء بألحان الكآبة والحزن والموت والقبر وجهنم ، وغمرهم بكثرة للتكليفات التي لا يقوم بها إلا الورعون ، هي التي جعلت نفوسهم تضيق بهذه القيود للفاسية التي تحبسهم عن حياة المتاع الحلال والحرام الذي لم يبين لهم سبب معقول لتحريمه إلا الخوف من عذاب جهنم . والدين إذا لم يبن على الفكر والتعليل أوشك أن ينهار بناؤه ، حتى في نفوس الدعاة إليه . وخصوصاً إذا كان ديناً يهيم على شؤون الدنيا ويقم لها حدوداً كالإسلام

أمن الحق أن يوجه فكر الإنسان دائماً إلى الموت على أنه هو المطلوب الأول من الحياة ؟

وهل من الحق أن نجعل المثل الأعلى للحياة الدينية هو التفرغ لما يسمى عند الناس بالعبادات ؟

قال للقرآني : « واعلم أن العلم غذاء والدين دواء ، فمن جعل الدواء غذاءه مرض ... »

وقول القرآني هنا قول فصل ، لأنه قول خبير في هذا المقام ومن قواعد الدعوة الإسلامية الأولى أن العامة والجاهل يبنون ألا يحملوا على الورع والزهد والتزمت ...

وللقرآن يتعرف بساطان الحياة على النفوس ويقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقفطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . ويقول : « إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » . ويكرر هذا المعنى في غير موضع . فلماذا نريد نحن أن نفرض للحياة صورة عقلية كلها جد مؤلم مستمر وصرامة . ونريد أن نحمل للناس عليها ، مع أن للعقل والشرع والتجربة

الأولية تقرر أن هذا مستحيل ؟ وهل كل ما في الحياة إلا تكوير وتخريب كآب الأطفال ؟ وهل الرجال والنساء إلا أطفال كبار يلعبون في الحياة لعبها الممهور بالجمع والطرح ؟

إننا نصنع من طين الأرض وموادها الميتة آلات تسمى وتطير وترى ونسمع ... ثم نخربها بالاستعمال والامتهان ونكون غيرها وهكذا . .

إننا نشق في جمع المال والاقتناء والاستكثار ثم نترك كل هذا

لغيرنا يبعث فيه ويبدده . أليس هذا عبثاً أو شيئاً أشبه بالعبث في نتائجها ؟ ولكننا نحملون على هذا من الطبيعة وإن نملك لأنفسنا غيره ، ورجال الدين مثلنا مع أننا نعلم ما تقول الحياة وما قال للقرآن عن الدنيا من أنها « متاع الفرور »

فلماذا لا ننظر إلى الحياة على حقيقتها هذه ثم لا نشام من كثرة ظواهر الشرور فيها ، حتى لا يحملنا التشاؤم على التماس وترك الكفاح ، ثم نحاول أن نتلطف في الدخول على الطبيعة البشرية الالهية للالعبة فنقتنمها بواجبات الجد والعمل في الأوقات للقليلة التي لم يطلب الله في غيرها من الإنسان أن يؤدي عملاً ؟

وكما تلطف التربية في الدخول على طبيعة الأطفال ، فملتهم مبادئ العلوم ، ودرستم على مبادئ الأخلاق عن طريق اللعب من غير شعور ، يبنى أن تفعل مثل ذلك مع الأطفال الكبار :

الرجال والنساء ... وتلك هي رسالة رجال الروح ... ولكن الدولة قد جنت على الحياة الروحية أكبر جناية حين أباحت الانتساب إلى الدين لمن لا تؤهله عقلية ، ولا ثقافته ، ولا تكوينه الجسمي أن يكون قائداً من قواد الروح ، وعنواناً جذاباً للدين ... وإلى الآن لم يتيقظ كبار رجال الروح إلى ضرورة وضع حد لهذه الحالة مع أنهم يدرسون في علوم العقائد أن الله لم يرسل رسولاً إلا بعد الانتقاء والاصطفاء ، وأنه لا بد أن يتحلى بالصدق والأمانة والتبليغ والفضائل والخلو من الميوب المنفرة ...

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة فقد كان ذكياً قوياً جليلاً لطيف الروح دمث الأخلاق رحب النفس نظيف الجسم والثوب بمشط شعره ويمطر ثيابه ويخضب لحيته ولقد عاش رسول الله بحمد عيشة رحيمة كما عاش بروحه فسابق وصارع وركب وحارب ولبس الدروع واقتنى السيوف